حملات الأمل:

الثقافويّة والإصلاح في العالم العربيّ

ميسون سُكّريّة*

ثقافة الأمل، ثقافة التفاؤل، ثقافة الحياة، ثقافة التنمية: تلك هي بعضُ الشعارات التي غزت، في السنوات القليلة الماضية، قاموسَ اللغة العربيّة، والفضاءاتِ العربيّةَ العامّة (من خلال اللوحات الإعلانيّة والدعايات التلفزيونيّة)، والثقافة العربيّة، وذلك عن طريق المؤتمرات والتقارير اللانهائيّة الهادفة إلى تعزيز «الثقافات» التي يُقال للعرب إنهم يفتقرون إليها. الشعارات المذكورة تمثّل جزءاً من حملاتٍ إعلانيّةٍ عامّةٍ، تموّلها «الوكالةُ الأميركيّةُ للتنمية العالميّة» والقطاعُ الخاصّ، وهي المقصودة بمصطلح «حملات الأمل» في هذه الدراسة.

* ـ باحثة مستقلة. والصورة هي للملكة رانية وميشيل أوباما.

تستند هذه الحملاتُ إلى نموذج أميركيّ، وهو «عمليّةُ الأمل» التي سنتناولها بعد قليل، وترتبط بالجهود الرامية إلى كبح المقاومة التي تعترض سبيلَ إعادة تشكيل العالم العربيّ، بما يَكفل الهيمنة الأميركيّة بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر. وتقوم هذه الحملاتُ بترويج ادّعاءاتٍ نمطيّةٍ جوهرانيّة (essentializing) عن الثقافة العربيّة والثقافة الغربيّة وأهميّتِهما في مجال الإصلاحات الجارية في العالم العربيّ.[١] وهذه الحملات، التي تُعتبر بمثابة جهودٍ موازيةٍ تقوم بها منظّماتٌ دوليّةٌ لِـ «تمكين الشباب» و«تحرير المرأة» و«الديموقراطيّة» في الدول العربيّة، ما هي إلاّ جزءٌ من ماكينةٍ إعلاميّةٍ تعمل على ترويج سياساتٍ تتناسب والمصالحَ الأميركيّةَ في المنطقة.[٢] وهي، إلى جانب ذلك، تشكّل نوعًا غير مسبوق من العلاقات العامّة في العالم العربيّ، لاسيّما من حيث تركيزه على الثقافة، ومن هنا ارتباطه «بالتحوّل الثقافيّ» الذي رافق الحربَ على الإرهاب.[٣]

سوف أركّز على ثلاثٍ من حملات الأمل: حملة «ثقافة الأمل» في الأردن عام ٢٠٠٥؛ وحملة «حُبّ الحياة» في لبنان عام ٢٠٠٦؛ وحملة «ثقافة التفاؤل» في مصر عام ٢٠٠٨. وسأحاول البرهنة على الأمور التالية: (١) أنّ حملات الأمل المذكورة تفيد في صرف الانتباه عن مظالم النظام الاقتصاديّ النيوليبراليّ والاحتلال والكولونياليّة، وتحويل هذه المظالم إلى محض «نقائص ثقافيّة،» ومن ثم إلى استيعاب المقاومة القائمة والمحتملة؛ (٢) أنّها تُستخدم أيضًا أدواتٍ من أجل تأمين مشاركةٍ شعبيّةٍ فاعلةٍ في سلسلة من «الإصلاحات» الموجَّهة؛ (٣) أنّها تشْغل فضاءً خطابيًا حيويًا هي في حاجةٍ ماسّةٍ إليه للحديث عن التفاؤل بأسلوبٍ أكثر واقعيّةً ودوامًا، ولكنْ من دون أن تقدّم غيرَ وعودٍ جوفاء.

حملات الأمل ـ نظرة عامّة

أ) «كيف نعزّز ثقافةَ التفاؤل في العالم العربيّ كأسلوبٍ للتنمية؟»: كان ذلك عنوانَ برنامج خاصّ بثّته قناةُ «العربيّة» من موقع اجتماع إحدى المؤسّسات العربيّة في القاهرة عام ٢٠٠٨ وشاركتُ فيه.[٤] بدأ البرنامجُ التلفزيونيّ بعرض فيلمٍ يضمّ مشاهدَ مصوّرةً من الأردن لأشخاص متجهّمين (دلالةً على الاستغراق في التفكير). ثم طُرح السؤالُ الآتي: «لماذا يشعر الأردنيون بالتشاؤم؟» وتلا ذلك عرضُ فيلمٍ آخر يضمّ مشاهدَ مصوّرةً من مصر، مؤدّاه أنّ المصريين فقدوا روحَ النكتة التي كانوا معروفين بها. وتبعتْ ذلك مقابلاتٌ أُجريتْ مع «خبراء» طُلب إليهم الحديثُ عن أسباب انتشار ثقافة التشاؤم في العالم العربيّ. إذنْ، لم يبدأ البرنامجُ بمناقشة السؤال في حدّ ذاته، أو بمناقشة معنى تعبير «ثقافة التشاؤم» (أهناك ثقافةٌ كهذه؟ وهل العرب متشائمون؟ وإذا كانوا كذلك، أيُعزى ذلك إلى أسبابٍ ثقافيّة؟)، بل بدأ «الخبراءُ» (فيلسوفٌ وعالمُ اجتماع وعميدُ جامعة وشخصيّةٌ دينيّة) يدلون بآرائهم التي راوحتْ بين الفكرة القائلة إنّ العرب ما يزالون يعيشون في الماضي، وبين استحضار «ذهنيّتهم الدينيّة،» وصولاً إلى شجب انتشار الأصوليّة التي تغرس ثقافةَ الخوف في أذهان أفراد الشعب العربيّ.[٥] مرةً واحدةً فقط ورد فيها ذكرُ مشكلة البطالة المتنامية، وذلك جوابًا على ما قاله شابٌّ مصريٌّ أرجع سببَ تشاؤمه إلى اللامبالاة السياسيّة السائدة في العالم العربيّ، وإلى قلقه الشخصيّ من ألاّ يجد عملاً بعد تخرّجه، أو إلى يأسه من امتلاك شقّةٍ يومًا ما. وسرعان ما طُرح سؤالٌ آخر على الخبراء، يتعلّق بطرق ترويج ثقافة التفاؤل في العالم العربيّ من خلال تعزيز ثقافة «التطوّع» وثقافة «المبادرة» وثقافة «الريادة» في وسائل الإعلام والمؤسّسات التربويّة.

في الجزء الذي خصّصه المؤتمرُ للتربية والتعليم، تَعرّف المؤتمرون إلى التجربة الفنلنديّة في التطوير التربويّ، الذي تُعتبر التجربةَ الأنجحَ في العالم. ولكنه تمّ تجاهلُ دور **الحكومة** الفنلنديّة وتأمين التعليم الحكوميّ تجاهلاً تامًا، وطُلب إلى المدرّسين التفكيرُ بمبادراتٍ فرديّةٍ لحلّ المشاكل التربويّة في العالم العربيّ. ولقد أُدرجت التجربةُ الفنلنديّة، كما قال لي أحدُ منظّمي اليوم التربويّ، بهدف تعزيز «ثقافة الأمل بين أوساط المدرّسين العرب الذين سيشعرون بالفرق الذي يمْكنهم تحقيقُه إذا اتّخذوا المبادرات وتصرّفوا.»

الجدير ذكرُه أنّه تمّ تصميمُ وترويجُ حملة «ثقافة التفاؤل» في مصر، رغم أنّ مجالها يتّسم بصبغةٍ عربيّةٍ عامّةٍ، خلال مؤتمر عُقد لتقديم **تقرير تطوير الثقافة في العالم العربيّ**، وقد أعدّته «مؤسّسةُ الفكر العربيّ» التابعة للأمير خالد بن فيصل من المملكة العربيّة السعوديّة.[٦] وتتجلّى فعاليّاتُ الحملة حاليًا في برنامج إعلاميّ، ومحاضراتٍ، وورش عملٍ حول **التقرير** المذكور. ويتحدّث المشاركون عن الفجوة الثقافيّة التي يعانيها العالمُ العربيّ، وعن التحدّيات التي تعترض نشرَ «ثقافة التفاؤل.» وهذه الحملة، التي لا تزال في مراحلها الأولى، هي

---

١ ـ Mayssun Succarie, **Education, Culture and Control,** Dissertation, UC Berkeley, 2008.

٢ ـ Lila Abu Lughod, "Engaging the Arab Human Development Report on Women," **International Journal of Middle East Studies,** 2009.

٣ ـ Derek Gregory, "Cultural Turn and the Late Modern Wars" (Unpublished document, 2008).

٤ ـ www.alarabiya.net/articles/2008/12/24/62747.html

٥ ـ شهادة شخصيّة على الجلسة التي حضرتُها أثناء المؤتمر. وتُمكن قراءةُ تقريرٍ مفصّلٍ عن الجلسة في ٢٠٠٩/١٠/٦ على الرابط الآتي:
http://www.almarefh.org/news.php?action=show&id=477.

٦ ـ على ما ورد في **التقرير**.

الأحدثُ في سلسلة حملاتٍ ثلاثٍ مشابهةٍ ظهرتْ في العالم العربيّ خلال السنوات القليلة الماضية على ما سبق الذكر، وجميعُها يُلقي باللوم على النزاعات الجارية في المنطقة لكونها هي المسؤولة عن نشر ثقافة الموت واليأس العربيّة.

«حملاتُ الأمل» تجري في الظاهر بقيادة نخب عربيّة، لكنّها تخطّط حسب نموذج حملات مماثلة جرت في الولايات المتحدة.

ب) أما الحملة الأولى زمنيًا فكانت «حملة الأمل،» وقد أطلقتها الملكة رانية في أول خطابٍ لها بعد الهجمات الإرهابيّة على فنادق عمّان عام ٢٠٠٥، مشيرةً إلى «فجوة الأمل» القائمة بين الغرب وبين العالم العربيّ، وإلى ضرورة تجسيرها بهدف نبذ ثقافة اليأس التي كانت الملكةُ تعتبرها المسؤولةَ الوحيدةَ عن تلك الهجمات وعن الإرهاب في العالم العربيّ عمومًا.[١] وقد عبّرتْ حملةُ «ثقافة الأمل» عن نفسها من خلال مشاريعَ جرى وضعُها بحيث «تناسب» الشبابَ الأردنيّ، وموّلتْها «الوكالةُ الأميركيّة للتنمية العالميّة،» ومن خلال مشروع Save the Children USA،[٢] ومشاريع أخرى موّلتْها نخبُ عالم الأعمال العربيّة (مثل «المنظّمة العربيّة للتنمية المستدامة»).

والواقع أنّ برامج الوكالة المذكورة أصبحتْ جزءًا لا يتجزّأ من المنظومة التربويّة الأردنيّة؛ فهي تشارك في التدريس داخل الصفوف، وفي تدريب المدرّسين، وتحظى بمَرافقَ داخل الجامعات مخصّصةٍ لتدريب الشباب في مجال «قابليّة التوظيف، ومهارات التسامح وقبول الآخر واحترام العمل وأخلاقيّات العمل.» وقد قال لي دينيس والدو، مديرُ مشروع Save the Children USA في الأردن، إنه يضع هذه البرامجَ ضمن سياق حرب الولايات المتحدة ضدّ الإرهاب. ويشرح ضرورةَ العمل مع شباب الطبقات الفقيرة:

«إذا وقفتِ في المستقبل ونظرتِ إلى الماضي، إلى عام ٢٠٠٦، فسوف ترَيْن أنّ من الضروريّ محاولة التأثير في الشباب قبل أن ينفجروا. نحن الآن هنا لنقدّم المساعدة. لا نستطيع الانتظارَ إلى أن يعمّ التطرّفُ البلادَ بأكملها ومن ثم نبدأ العمل. انظري إلى ماذا حدث في أفغانستان. لقد خطا الأردن خطواتٍ واسعةً نحو التنمية، ولا نرغب في أن نراه يعود إلى التخلّف مثل أفغانستان. علينا أن نعمل الآن.... إنّ مشكلة التطرّف سوف تبقى قائمة، لكنّ هدفنا النهائيّ هو نشر ثقافة الأمل... . نريد أن يصبح التطرّف هو الشيء الخارج عن المألوف، لا العُرف. فالأردن بلدٌ شديدُ الأهميّة من الناحية الإستراتيجيّة.»[٣]

وعندما سألتُه: «مهمّ إستراتيجيًا بالنسبة إلى من؟» أجاب: «بالنسبة إلى الولايات المتحدة، وإلى المجتمع الدوليّ بالطبع.»[٤]

هذا، وكان نشرُ ثقافة الأمل هو السببَ أيضًا وراء قرار فادي غندور[٥] إطلاقَ برنامجه في جبل النظيف ـ أحدِ جيوبِ الفقر في المملكة ـ بعد الهجمات على الفنادق الأردنيّة مباشرة. فلقد قرّر غندور، الذي نُكب بوفاة صديقٍ له في تلك الهجمات، اتخاذَ إجراءٍ ما، «وإلاّ فإنّ الإرهاب سيضربنا جميعًا. ثمة حاجةٌ إلى نشر ثقافة الأمل بين أوساط الشباب المتروكين للمجموعات الإرهابيّة.»[٦] الواجبُ ذكرُه هنا أنّ المنظّمة العربيّة للتنمية المستدامة (التي بدأت العملَ في جنوب لبنان أيضًا عقب الحرب التي شنّتها إسرائيلُ عام ٢٠٠٦) تُركّز على تعليم الشباب مهاراتِ قابليّة التوظيف والتسامح والأمل، وتتعاون مع مشاريع الوكالة الأميركيّة للتنمية العالمية في الأردن لترويج ثقافةٍ كهذه ولمساعدة الشباب على «الاندماج» ضمن التيّار العامّ السائد في المجتمعَيْن الأردنيّ والعالميّ.[٧]

ج) أما حملة «حُبّ الحياة» فهي حملة سياسيّة انطلقت بعَيْد حرب إسرائيل عام ٢٠٠٦ ضدّ لبنان، الذي كان يعاني انقسامًا حادًا أعقب اغتيالَ رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري، وذلك بين معسكرين: معسكر ١٤آذار/مارس الموالي لأميركا، ومعسكر ٨ آذار/مارس المناوئ لسياسات أميركا وهو بقيادة حزب الله.[٨] صَمّمتِ الحملةَ وكالةُ Saatchi & Saatchi، وموّلها القطاعُ الخاصّ و«الوكالةُ الأميركيّةُ للتنمية العالميّة» هنا أيضًا، واعتمدتْ بشكلٍ واضح على اللوحات الإعلانيّة والدعايات التلفزيونيّة. وكان المقصودُ بها بدايةً أن تقود لاحقًا إلى حملة تشجيع ثقافة الريادة الاقتصاديّة وثقافة المبادرة الفرديّة. لكنّ تغيّر السياسة الأميركيّة في لبنان باتجاه تخفيف الاحتقان مع سوريا أدّى إلى «موت» الحملة بهدوء رغم استمرار أدبيّاتها في أحزاب اليمين وجمعيّاته وإعلامه.

---

١ ـ www.queenrania.jo/content/modulePopup.aspx?secID=&itemID=55&ModuleID=press&ModuleOrigID=news-21k. Accessed January 20, 2009.

٢ ـ أبرز هذه المشاريع مشروعا «نجاح» و«إنجاز.»

٣ ـ ٤ ـ من مقابلة خاصة في ٢٠٠٦/١١/٢٠.

٥ ـ هو المدير التنفيذيّ لـ أرامكس، وعضوُ المنتدى الاقتصاديّ العالميّ، ورئيسُ إدارة مجلس الأعمال العرب، وأحدُ أبرز الشخصيّات المؤثّرة في عالم المال والاقتصاد العربيّين، على ما يشير التقريرُ الشهريّ للمجلس المذكور.

٦ ـ من مقابلة خاصة في عمّان بتاريخ ٢٠٠٧/٤/٢٢.

٧ ـ لتفاصيل عن الحملة، راجع موقعها: www.ruwwad.net

٨ ـ electronicintifada.net/v2/article6474.shtml. Accessed September, 23, 2009.

كلّفت الحملةُ مليونًا ونصفَ مليونٍ من الدولارات الأميركيّة، واستخدمتْ لوحاتٍ إعلانيّةً تحمل عبارة «حبّ الحياة» بثلاث لغات: العربيّة والإنكليزيّة والفرنسيّة. كما قامت بتنظيم حفلاتٍ موسيقيّة، كان أبرزها حفلة رأس السنة عام ٢٠٠٦، حين تجمّع ما يقارب ١٥٠٠٠ شخص في وسط بيروت. وعند منتصف الليل، توهّجت الواجهةُ البحريّةُ لبيروت بعرض الألعاب الناريّة الضخم. وكانت رسالةُ الحملة، كما ورد في موقعها، هي الآتية: «مطالبة المواطنين في جميع أنحاء لبنان تولّي مقاليد مستقبلهم، ومقاومةَ إبقائهم ضحايا السخرية واللامبالاة، عن طريق مشاركتهم اليوميّة في تقرير مصيرهم.... نحن نفهم **ثقافة الحياة**، كنقيضٍ **لثقافة الموت**، باعتبارها إحساسًا عميقًا متطوّرًا قادرًا على تمييز القيم الأصيلة وتفسير الاحتياجات الحقيقيّة في مجتمعنا. نحن نريد اتخاذَ زمام المبادرة وتبنّي التغيير في مسعًى لإيجاد حياةٍ جديدةٍ ومنظورٍ جديدٍ يحملان معهما معاييرَ اجتماعيّةً واقتصاديّةً جديدة.»[١] ويقول إيلي خوري، مديرُ Saatchi and Saatchi، في هذا الشأن: «نحن نريد أن نقول للعالم إنّ اللبنانيين، ورغم كلّ ما يظهر على شاشات التلفزيون، يريدون أن يعيشوا وأن يمضوا في الحياة قدمًا.»[٢]

لكنْ، على الرغم من أنّ حملة «حبّ الحياة» أوحت بالحياد، فإنّ توجّهاتها الفعليّة كانت معاديةً لمقاومة إسرائيل؛ كما اعتبرتْ نفسَها جزءًا من الأجندة السياسيّة للولايات المتحدة والاتحاد الأوروبيّ في الشرق الأوسط. وراحت الحكومةُ اللبنانيّة ومعسكرُ الرابع عشر من آذار/مارس يقدّمان نفسيهما مقاومَيْن للمحور السوريّ ـ الإيرانيّ القائم (في رأيهما) على ثقافة الاستشهاد أو ثقافة الموت، في حين يمثّل الأوّلان القيمَ الغربيّةَ في لبنان من خلال شعارات «الحريّة والسيادة والاستقلال.» وكانت الحملة تبعث برسالةٍ مفادُها أنّ الفريق الموالي للأميركيين هو فريقٌ متحضّرٌ يلتزم بثقافة الحبّ، في حين أنّ الأطراف المناوئة للأميركيين كانوا من محبّي الموت. ولذلك قادت المعارضةُ في حينها (فريق ٨ آذار) حملةً مضادّةً، مضيفةً تحت شعار «حبّ الحياة» عباراتٍ من نوع: «بكرامة!» أو «بدون ضرائب!» أو «بأطيافٍ متعدّدة!»؛ كما ظهر على إحدى لوحات المعارضة عبارة «I heart Capitalism» [أحبّ الرأسماليّة]؛ وأطلقت المعارضة على الحملة بكاملها اسمَ «ثورة Gucci.»[٣]

لمّا كانت حملاتُ الأمل تلك قد انطلقتْ بقيادة ملكة (كما في حملة «ثقافة الأمل») وقيادة أمير (كما في حملة «ثقافة التفاؤل») وقيادة نُخبٍ سياسيّةٍ واقتصاديّة (كما في حملة «حبّ الحياة»)، فإنها اجتذبتْ تغطيةً إعلاميّةً واسعةً ساعدتْ على نشر تلك المفاهيم والإيديولوجيا التي شكّلتْ أساسًا لها. فلم تمضِ فترةٌ وجيزةٌ على إطلاق برنامج ثقافة التفاؤل حتى ظهرتْ سلسلةٌ من المقالات (٥٠٠ مقال صحفيّ خلال شهر واحد) والمناظرات في مواقع إعلاميّةٍ مختلفة، وكلُّها يسلّم بأنّ الثقافة العربيّة تتسم باليأس والتشاؤم.[٤]

وبالرغم من أنّ حملات الأمل، في الظاهر، تجري بقيادة نخبٍ عربيّةٍ سياسيّة ومن عالم الأعمال، فإنها تُخطَّط بصورةٍ مباشرةٍ حسب نموذج حملاتٍ مماثلةٍ جرت في الولايات المتحدة. ويجري تصميمُ تلك الحملات وتمويلُها (على ما سبق الذكر) من قِبَل الوكالة الأميركيّة للتنمية العالميّة، أو يجري إنتاجُها (كما في حالة حملَتْي «حبّ الحياة» و«ثقافة الأمل») من قبل Saatchi & Saatchi التي يقع مقرُّها الرئيسُ في الولايات المتحدة.[٥] ونلمس جذورَ تلك البرامج في برامجَ موازيةٍ لها كانت تنفَّذ في الولايات المتحدة نفسها للتعامل مع الاضطرابات الداخليّة؛ والمثال البارز هنا هو برنامجُ «عمليّة الأمل،» الذي بدأ تنفيذُه في لوس أنجلس بعد أحداث شغب رودني كينغ (١٩٩٢)، وهو بإدارة جون هوپ براينت. ومن خلال تحليل البرامج التي تمخّضتْ عن هذه العمليّة يتّضح أنها تَستخدم القوةَ الناعمة للتعامل مع الشباب المتمرّد، الذين يُعتبرون الضحايا المهمّشين لاقتصاد السوق. ففي حين تكون مشاكلُ البطالة في العالم العربيّ ناجمةً، في رأي مصمّمي هذه البرامج، عن ثقافة التشاؤم، نجد أنّ المسؤول عن انتشار الفقر في أحياء البؤس في لوس أنجلس هو حالة ذهنيّة أيضًا. ويحاول بريانت من خلال برامجه تحميلَ الأفراد اضطراباتِ السوق، ويسعى إلى إقناعهم بأنّ العمل على تطوير مهاراتهم وتغيير مدركاتهم عن الأوضاع قد يؤدّي إلى النجاح الاجتماعيّ والاقتصاديّ عن طريق نشر ثقافة تحميل المسؤوليّة (re-sponsibilization). وقد جال بريانت في الشرق الأوسط لتقديم محاضرات حول الأمل، وذلك بدعوة من «ملكة الأمل» ذاتها (الملكة رانية)، التي تشاركه عضويّة الهيئة الاستشاريّة لـ «منظمة القادة العالميين» الشباب التابعة للمنتدى الاقتصاديّ العالميّ.[٦]

الإطار الإيديولوجيّ لحملات الأمل

«دأبت الولاياتُ المتحدة على اختيار منطقةٍ ما يعاني سكّانُها جهلاً يبعث على الرثاء، فتصنّفها منطقةً مثيرةً للقلاقل تؤوي

---

١ ـ www.Ilovelife.com.lb. Accessed Jamuary 20, 2007.

٢ ـ electronicintifada.net/v2/article6474.shtml. Accessed September, 23, 2009.

٣ ـ لمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة، راجع موقعها: iheartcapitalism.wordpress.com/about/ Accessed October, 8, 2009.

٤ ـ http://www.arabthought.org/index.php?option=com_content&task=view&id=349

٥ ـ http://www.johnhopebryant.com/john_hope_bryant_/2009/05/memories-of-time-with-queen-rania-of-jordan-promoting-global-digniy.html. Accessed on December 2, 2008.

٦ ـ http://urdunmubdi3.ning.com/video/john-hope-bryant-on-financial. Accessed on December 24, 2007.

قوًى شرّيرةً، وذلك بهدف تبرير التدخّلات أو العقوبات أو أيّة إجراءاتٍ قسريّةٍ أخرى» (ديڤيد هارڤي).[١]

بعد ١١ أيلول جرت إعادة تشكيل العالم وتقسيمه على أساس خطوط ثقافيّة، وقُدّم المجتمع العربيّ من خلال خصائص ثقافيّة جوهرانيّة تتحدّى الزمن.

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، جرت إعادةُ تشكيل العالم وتقسيمُه ثانيةً على أساس خطوطٍ ثقافيّة. في عالمٍ كهذا، يُفهم البشرُ على أنهم نتاجُ ثقافتهم، بدلاً من العكس.[٢] وهذه إيديولوجيا ثقافويّة (culturalist) بمعنى أنها «تُرجع كلّ شيء إلى الثقافة، إضافةً إلى أنها تحمل رؤيةً اختزاليّةً للثقافة.»[٣] وهنا يجري تقديمُ المجتمع العربيّ بكامله من خلال خصائص ثقافيّةٍ جوهرانيّةٍ تتحدّى الزمنَ (بدلاً من أن تُدرك الثقافةُ باعتبارها تجربةً معيشةً تُنتَج ويعاد إنتاجُها يوميًا) وتتجاهل التباياتٍ داخل المجتمع. وبعد الجزم باستقلاليّة الثقافة عن الفعاليّات الاجتماعيّة والسياسيّة الأخرى، يجري اختزالُ التغيير إلى تغيير ثقافيّ فقط. والنتيجة؟ ظهورُ ادّعاءاتٍ بوجود «فجوةٍ ثقافيّة» تفصل بين المجتمعات، فتعرّف ثقافةُ الغرب بأنها حيّةٌ عصريّةٌ متفائلة تدعو إلى التحرّر، في حين يجري امتهانُ الثقافة العربيّة باعتبارها تقاليدَ باليةً تتّسم باليأس والتشاؤم والموت. ويجري التعبير عن فكرة الفجوة الثقافيّة من خلال نظريّة الافتقار (lack) الذي لا يمكن القضاءُ عليه إلاّ عن طريق جلب جميع احتياجات المجتمع المفتقِر من المجتمع المهيمن.[٤] وهذه النظريّة تصوّر المجتمعَ العربيّ مفتقرًا إلى جميع المتطلّبات التي تجعله جديرًا بالانضمام إلى المجتمع العالميّ ـ بدءًا بحكم القانون، مرورًا بالتنمية، والديمقراطيّة، والأمل، وصولاً إلى السلام والتآلف. إنها نظريّة قائمة على تضادٍّ ثنائيٍّ اختزاليٍّ ماهويٍّ بين العرب والعالم الغربيّ، ينتهي لا محالةَ بترويج تاريخٍ طويلٍ من الادّعاءات الاستشراقيّة التي تقوم بدور الدليل الموجِّه للسياسات ولجهود «الإصلاح» القائمة على فكرة الافتقار: الغرب متعلّمٌ ومثقّفٌ ومتسامحٌ ومسالم، في حين أنّ العالم العربيّ جاهلٌ ومتعصّبٌ وعنيفٌ وعصيٌّ على التغيير. وتلك قصة قديمة، وبموجبها يتمّ تقسيمُ العالم بين مالكٍ ومعدَم... ولكنْ بلغة الثقافة لا بلغة الثروة الماديّة. ويجري التعتيمُ على أيّ إيحاءٍ بأنّ هدف السياسة الخارجيّة الأميركيّة هو السيطرة على الموارد الطبيعيّة للعالم العربيّ ونهبها. وتقدَّم تلك السياسةُ بوصفها صوتًا خبيرًا يعمل على مساعدة العالم العربيّ في تطوير ثقافته لصالحه الخاصّ.[٥] والحقّ أنه حين توضع هذه الإيديولوجيا الثقافويّة ضمن سياق الرأسماليّة العالميّة، حيث تتوافق مصالحُ النخب العربيّة مع مصالح النخب الغربيّة لجهة رغبة الطرفين في قمع حركات مقاومة النظام النيوليبراليّ، فإنها (أيْ تلك الإيديولوجيا) تتحوّل أداةً للسيطرة لا بيد الولايات المتحدة فقط، بل بيد القادة العرب أيضًا. وتقوم تلك النخبُ من الطرفين بنشر الإيديولوجيا المذكورة لتعمي الأنظارَ عن علاقات الهيمنة الرامية إلى الاستغلال والقمع داخل المجتمع العربيّ، ولتشرعن علاقاتِ الهيمنة القائمة بين العالم العربيّ والولايات المتحدة.[٦]

نشأتْ حملاتُ الأمل نتيجةً لسلسلةٍ من التقارير التي أُعِدّت حول العالم العربيّ، وهي: **تقرير التنمية البشريّة في العالم العربيّ**[٧] (الذي يُعتبر «إنجيلَ» الإصلاحيين)، **ومبادرة الشرق الأوسط الكبير** (التي أطلقتْها وزارةُ الخارجيّة الأميركيّة بُعَيد الحرب على العراق مباشرةً)، **ووثيقة الإسكندريّة** (الصادرة عن مجلس الأعمال العربيّ).[٨] فإذا قلّبنا صفحاتِ التقارير المذكورة لاحظنا أنها تروِّج لتطبيق المذهب النيوليبراليّ في الاقتصاد بهدف تأمين «الحكم الرشيد» و«التنمية.»

أ) ففي **التقرير الأول للتنمية العربيّة** تم تصويرُ العالم العربيّ متخلّفًا على كافّة الصعد مقارنةً بالغرب. ومن أجل تطوير العرب، وبالتالي إنقاذ العالم، تهدف السياساتُ المقترَحة في **تقرير التنمية البشريّة** إلى دمج العالم العربيّ في الاقتصاد العالميّ، لأنّ معظم الإخفاقات التي يعانيها العالمُ العربيّ مرتبطٌ (بحسب ما يُفهم من **التقرير**) بكونه خارج سياق هذا الاقتصاد. وهكذا يُقترح ما يأتي: دمجُ العالم العربيّ في منظّمة

---

١ ـ David Harvey, **Cosmopolitanism and the Geographies of Freedom** (NY: Columbia University Press, 2009).

٢ ـ Edward Said, "Clash of Ignorance," **The Nation**. Available online at www.thenation.com/doc/20011022/said - 38
Amartya Sen, "What Clash of Civilizations?," Available online at http://www.slate.com/id/2138731

٣ ـ Arif Dirlik, **The Postcolonial Aura: Third World Criticism in the Age of Global Capitalism** (Westview Press, 1997).

٤ ـ Laura Nader, "The ADR Explosion: The Implication of Rhetoric in Legal Reform," in **Windsor Yearbook of Access to Justice** (Spring 1998).

٥ ـ Lila Abu Lughod, op.cit

٦ ـ Arif Dirlik, op.cit; Abdallah Laroui, **The Crisis of the Arab Intellectual: Traditionalism or Historicism** (University of California Press, 1976); Fredrick Jameson, **Postomodernity or the Cultural Logic of Late Capitalism** (Duke University Press, 1986).

٧ ـ http://www.meforum.org/article/513. Accessed on February 23, 2008.

٨ ـ http://www.mowatinat.org/articles/index.php?news=491

التجارة العالميّة، وإبرامُ اتفاقيّاتٍ للتجارة الحرّة مع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبيّ، والدعوةُ إلى إجراء تعديلاتٍ بنيويّةٍ، والحدّ من الأنظمة الحكوميّة، وفتح الحدود، والخصخصة. ويتابع **التقرير**، صفحةً بعد صفحة، الدعوةَ إلى تطبيق المذهب النيوليبراليّ في الاقتصاد بغية توفير الحكم الرشيد والنماء:

«الأولويّة الأساسيّة للسياسة في الدول العربيّة ينبغي أن تكون إيجادَ دورةٍ فعّالةٍ بحيث يؤدّي النموُّ الاقتصاديّ إلى تعزيز التنمية البشريّة، وتؤدّي التنميةُ البشريّةُ بدورها إلى تعزيز النموّ الاقتصاديّ... . فالتنمية يُعاد ابتكارُها من خلال الأسواق الجديدة (أسواق الرأسمال وصرف العملات على سبيل المثال)، والأدواتِ الجديدة (شبكة الإنترنيت والهواتف الخلويّة على سبيل المثال)، والفاعلين الجدد (المنظّمات الأهليّة والاتحاد الأوروبيّ ومنظّمة التجارة العالميّة)، والقواعدِ الجديدة (الاتفاقيّات المبرمة بين أطرافٍ متعدّدةٍ بشأن التجارة والخدمات والمِلْكيّة الفكريّة على سبيل المثال). نجد في المقابل أنّ دور الدولة في تعزيز واستكمال وتنظيم الأسواق، من أجل البضائع والخدمات وعوامل الإنتاج، كان محصورًا ومقيّدًا في الوقت نفسه. وكانت النتيجة الجزئيّة أنّ إسهامَ القطاع الخاصّ الرسميّ في التنمية كان في الغالب متردّدًا، وبالطبع، دون المستوى المأمول.... إنّ اعتبارات النموّ والإنصاف تجعل من تعزيز تنمية قطاعٍ خاصّ ديناميكيّ أولويّةً حاسمةً في أسلوب إدارة الاقتصاد في الدول العربيّة» (ص ١٢٣).

وبحسب **التقرير** أيضًا، فإنّ نقص الحريّة يقوّض أسسَ التنمية البشريّة، ويُعتبر أحدَ التجلّيات الأكثر إيلامًا لتخلُّف التطوّر السياسيّ. وفي حين تكفل الدساتيرُ والنظمُ القانونيّةُ والبياناتُ الرسميّةُ العربيّة مشروعيّةَ الديمقراطيّة وحقوق الإنسان، فإنّ **التقرير** يلاحظ أنّ التنفيذ غالبًا ما يُهمل الديمقراطيّةَ وحقوقَ الإنسان، أو يتغاضى عنها عمدًا أحيانًا.(١)

عكست المعلوماتُ التي قدّمها **التقريرُ** الحماسَ الإمبرياليّ لرسالة الاستعمار التمدينيّة، وللفوائد القصوى المتأتّية عن فرض التطوّر والتنمية بالقوة في المنطقة العربيّة. كما أنه حجب حقيقة أطروحة «دمج العالم العربيّ في الاقتصاد العالميّ،» التي يعتبرها كثيرون أداةً للإمبرياليّة الأميركيّة. ومع أنّ **التقرير** وضعتْه مجموعةٌ من الباحثين «العرب،» كما تؤكّد على الدوام الإدارةُ الأميركيّةُ والحملةُ الإعلاميّةُ التي واكبتْ إصدارَه (كُتب عنه ٥٠٠ مقال خلال الأشهر الثلاثة الأولى التي تلت إصداره على ما سبق الذكرُ)، فإنّ معظم أولئك الباحثين، ربما بتأثير من ثقافتهم الغربيّة غير المنشقّة، ومن عملهم في منظّماتٍ دوليّةٍ ومؤسّساتٍ أكاديميّةٍ أميركيّة، يتبنّوْن مفهومًا غربيًا (رأسماليًا) للتنمية. ولقد كان الدور الرئيس لـ **التقرير** هو تأمين الأساس العلميّ والفكريّ للسياسات التي تقترحها الحكومةُ الأميركيّةُ والمنظّماتُ الدوليّةُ ونُخَبُ عالم الأعمال العربيّة.(٢)

ب) يقودنا **تقريرُ التنمية البشريّة** مباشرةً إلى الادّعاءات التي تتضمّنها **مبادرة الشرق الأوسط الكبير** الأميركيّ:

«تشكّل منطقةُ الشرق الأوسط الكبير تحدّيًا فريدًا وفرصةً نادرةً للمجتمع الدوليّ. فـ 'النواقص' الثلاث التي أشار إليها الباحثون العرب الذين وضعوا تقريرَي التنمية البشريّة في العالم العربيّ، تحت إشراف الأمم المتحدة، في العامين ٢٠٠٢ و٢٠٠٣ ـ وهي الحريّات والمعرفة وتمكينُ النساء ـ قد أسهمتْ في خلق ظروفٍ تمثّل تهديدًا للمصالح الوطنيّة لمجموعة الدول الثماني. وطالما أنّ عدد الأفراد التابعين سياسيًا واقتصاديًا يتزايد في المنطقة، فإننا سنشهد تناميًا في التطرّف والإرهاب والجريمة الدوليّة والهجرة اللاشرعيّة.»(٣)

يعتمد مشروعُ الخلاص المقترح للشرق الأوسط الكبير اعتمادًا كاملاً على **تقرير التنمية البشريّة**. فالقطاعات الثلاثة التي ناقشها **التقرير** تحوّلتْ إلى أولويّات في **مبادرة الشرق الأوسط الكبير** من أجل تنمية المنطقة، وبالتالي توفير الأمن للعالم:

«اتفقت مجموعةُ الدول الثماني على أولويّات الإصلاح المشتركة التي من شأنها معالجةُ النواقص المذكورة، وذلك عن طريق: تعزيز الديمقراطيّة والحكم الرشيد؛ إنشاء المجتمع المعرفيّ؛ توسيع مجال الفرص الاقتصاديّة. أولويّات الإصلاح المذكورة هي مفتاحُ التنمية في المنطقة: فالديمقراطيّة والحكم الرشيد يشكّلان الإطارَ الذي تتشكّل ضمنه التنمية، والأفرادُ ذوو التعليم العالي هم وسطاءُ التنمية، أما المؤسّسات التجاريّة فهي محرّك التنمية.»(٤)

في كلّ مقطعٍ من مقاطع **المبادرة** تَرِدُ إحصاءاتٌ ونتائجُ مقتبسةٌ من **التقرير**، ومن ثم يجري اقتراحُ السياسات على أساسها. وإذا كان **التقرير** يركّز على المجال الاقتصاديّ، فإنّ **المبادرة** تهدف إلى إعادة صياغة المجال السياسيّ، بحيث تَحتجز المنطقةَ ضمن التزام المسار النيوليبراليّ للتنمية، وذلك عن طريق نشر قيم السوق في الحياة الاجتماعيّة. كما تدعو **المبادرة** إلى إنشاء مؤسّساتٍ ماليّةٍ مختلفة، مثل «مؤسّسة التمويل الصغير بهدف الربح، بميزانيّةٍ تبلغ ٤٠٠ ـ ٥٠٠ مليون دولار، لفترةٍ تستمرّ خمس سنوات، وهو ما سيساعد ١,٢ مليون صاحب عمل صغير على تجاوز مرحلة الفقر»؛ و«شركة تمويل الشرق الأوسط الكبير للمساعدة على احتضان مشاريع العمل المتوسّطة والكبيرة، تحت إدارة مجموعة من كبار العاملين في القطاع الخاصّ في الدول الثماني، الملتزمين بتطبيق خبراتهم في مجال تطوير الأعمال في منطقة الشرق الأوسط الكبير»؛ و«بنك تنمية الشرق الأوسط الكبير (GMED Bank) للمساعدة على إصلاح أولويّات التنمية الماليّة الأساسيّة في الدول.»(٥)

ج) وفي العالم العربيّ، تبيّن **وثيقةُ الإسكندريّة** المشاكلَ الاقتصاديّة التي تواجه هذا العالم، إذ تُجري تحليلاً ثقافيًا، ومن ثمّ تتقدّم بقائمةٍ جاهزةٍ من الحلول التي تبدو «أشبهَ بقائمةٍ وضعها شخصٌ

---

١ ـ http://www.aljazeera.net/NR/exeres/C516B67B-480E-4BA7-BFF5-24FA15693D20.htm. Accessed on February 25, 2007.

٢ ـ Galal Amin, "Colonial Echoes," **Al Ahram Weekly**, April 7, 2004.

٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ **الحياة**، ٢٠٠٤/٢/١٣.

نيوليبراليّ مخلص بما يتلاءم وآمالَه.»[1] فقد شكّل إلغاءُ القيود، والخصخصةُ (بما في ذلك خصخصةُ المصارف)، التعبيرين الأبرز في **الوثيقة**. كما تدعو **الوثيقة** إلى إلغاء احتكارات الدولة، لكنها لا تشير لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ إلى الإجراءات الكفيلة بضبط الاحتكارات الخاصّة واحتكار الشركات، التي تتكاثر بسرعة البرق في المنطقة وفي كلّ مكان نتيجةً للخصخصة وإلغاء القيود. بل لم تقترح **الوثيقة** قوانينَ anti-trust مستوحاةً من النموذج الأميركيّ نفسه. وهي تركّز أيضًا على الحاجة إلى معالجة الفساد، وضمان استقلاليّة القضاء، وتأسيس شراكاتٍ بين القطاعين الخاصّ والعامّ، وتعزيز دور المجتمع المدنيّ في عمليّة الإصلاح. وقد كُيِّفت القضايا المذكورة بحيث تتناسب وتصاعُدَ شأن «الحكم الرشيد» وزيادة روحيّة التنافس القوميّة إلى حدّها الأقصى.

إنَّ إطلاق تعبير «ثقافة التشاؤم» بدل «جيل الهزيمة» يمثّل في حدّ ذاته الصيرورة الأخيرة في عملية استعمارِ العالم العربيّ.

تتحدّد مشاكلُ العالم العربيّ في **الوثيقة**، في المقام الأول، بلغة المواقف. وبالتالي، ينبغي لجهود التنمية، بحسب **الوثيقة**، أن تنصبَّ على تغيير منظومات القيم، مع التركيز على «مشكلتَيْن» مفتاحيتين في القيم العربية. المشكلة الأولى هي «مقاومة التغيير» ـ وهي أطروحةٌ تُستحضَر كلّما رفضت الشعوبُ المحليّةُ القيامَ بما يطلبه منها أعضاءُ منظمة القادة الشباب العرب ومجلسُ الأعمال العربيّ و«النخب» الأخرى. فالموظّفون الذين اعتادوا العملَ في القطاع العامّ ويتمسّكون بوظائفهم هناك «مقاومون للتغيير»؛ وأصحابُ العمل والعمّال الذين يفضّلون اتّباعَ الأساليب التقليديّة المحليّة في العمل، وفي إنتاج السلع والخدمات، على تبنّي الأساليب الغربيّة، هم أيضًا «مقاومون للتغيير.» هذه «الذهنيّة المقاومة للتغيير،» إذن، تُعتبر في **الوثيقة** إحدى العقبات الرئيسة في وجه التنمية؛ ومن هنا الحاجة، على ما توحي **الوثيقة**، إلى جيلٍ جديدٍ من القادة الشباب العرب المستعدّين لتنفيذ ما تعلّموه في الولايات المتحدة والغرب. العقبة الثقافيّة الأساسيّة الثانية في وجه التنمية الاقتصاديّة هي افتقارُ العرب إلى منظومةٍ خاصّةٍ بأخلاقيّات العمل ـ وهذه نغمةٌ مألوفةٌ يردّدها الإمبرياليون الأجانب، في حين أنّ الأمر في الواقع يرتبط بالتقاليد القديمة، إذ كان القطاعُ العامّ هو صاحبَ العمل الرئيس، وبالتالي لم يكن لدى الناس دافعٌ يحثّهم على العمل بغية التفوّق وزيادة الإنتاج.[2]

تلتزم الوثائقُ الثلاث ـ **التقرير، والمبادرة، والوثيقة** ـ الصمتَ إزاء أهميّة الموارد الطبيعيّة في تنمية المنطقة. واللافت أنه لم يَرِدْ ذكرُ عوائد النفط لدى مناقشة الإصلاحات الاقتصاديّة: فهناك غيابٌ تامٌّ لأيّة إشارةٍ إلى التوزيع غير المتكافئ لتلك العوائد، أو إلى استخدامها الإشكاليّ وسيلةً للتنمية. كما تغفل الوثائقُ أيَّ ذكر للإنتاج الزراعيّ، وهو من أكثر القطاعات حيويّةً في الاقتصاديّات العربيّة، وتعمل فيه الغالبيّةُ العظمى من الشعب العربيّ.

لقد دفع التطابقُ الوثيقُ بين **المبادرة** الصادرة عن وزارة الخارجيّة الأميركيّة، و**التقرير** الصادر عن الأمم المتحدة، و**الوثيقة** التي أعدّتها النخبُ العربيّة، بالصحفيّ والمعلّق جهاد الزين (٢٠٠٤) إلى وصف هذه النخب العربيّة بـ «المستشرقين الشرقيين.» فقد تحالف هؤلاء مع الإدارة الأميركيّة ومع المنظّمات الدوليّة الهادفة إلى تحقيق توافقٍ على أجندةٍ خاصةٍ بالنخبة تلتقي مع مصالح الولايات المتحدة في المنطقة. وتحت شعار «التفاؤل،» تروِّج تلك المشاريعُ ثقافةً متناغمةً مع الإصلاحات النيوليبراليّة المقترحة، تسير في مسارين: (١) امتصاص التوتّر والاضطرابات التي تثيرها الإصلاحاتُ النيوليبراليّة وتفكيكُ دولة الرعاية الاجتماعيّة؛ و(٢) غرس سلوكيّات التكيّف والانضباط في أذهان الناس تؤدّي بهم إلى تقبُّل الإصلاح الاقتصاديّ النيوليبراليّ لمواجهة المشاكل المستفحلة التي يخلقها اقتصادُ السوق الحرّة.

من «جيل الهزيمة» إلى ثقافة التفاؤل

يمكن كشفُ العلاقة بين حملات الأمل والمذهب الثقافويّ الساعي إلى إعادة استعمار العالم العربيّ من خلال تحليل مفهوم «جيل الهزيمة.» فبعد نكسة ١٩٦٧ أُطلق على جيل الشباب في تلك الفترة اسمُ «جيل الهزيمة.» وساد شعورٌ عامّ بأنّ ذلك الجيل قد خسر القضيّة بسبب فشله في تحقيق انتصار على الاحتلال الإسرائيليّ والإمبرياليّة ككلّ. وظهر العديدُ من المقالات والكتب والشهادات في مسعًى من أفراد ذلك الجيل لتحليل أسباب فشلهم لكي تتمكّن الأجيالُ القادمةُ من تجاوزه وتحرير فلسطين وتطوير العالم العربيّ على أساسٍ اشتراكيّ أو علمانيّ أو ليبراليّ.[3] وهكذا نجد أنّ مفهوم «جيل الهزيمة» يشير إلى حالةٍ موقّتة، وترتبط بجيلٍ واحد. ولقد كانت التفسيرات التي تناولت الهزيمة، في معظمها، ذاتَ طابعٍ بنيويّ، بدءًا بتحليلٍ دقيقٍ للحداثة ومكامن إخفاقها، وصولاً إلى تناول مشكلة الحكم الفرديّ في العالم العربيّ وضرورة العمل على إحداث تغيير في كلّ الدول العربيّة. ولكنْ، لم يحدثْ أن اعتُبرت

١ ـ F. Traboulsi, "Production of Knowledge in the Arab World" (Unpublished paper, 2007).

٢ ـ Succarie, op. cit.

٣ ـ Sadeq Jalal Al-Azm, **Self Criticism after the Defeat** (Beirut: Beirut Press, 1968).

«الثقافة العربيّة» سببًا للهزيمة[1] إلاّ من طرف مجموعةٍ قليلةٍ من المثقفين أمثال أدونيس وهشام شرابي، ولم يكن هذا الخطاب مهيمنًا في ذلك الحين.

أما اليوم فتلجأ النخبُ العربيّة وحلفاؤها الغربيون إلى استحضار «ثقافة التفاؤل،» وإلى الادّعاء أنّ العالم العربيّ مشلولٌ نتيجةً لهيمنة «ثقافة التشاؤم،» وإلى نزع مفهوم «جيل الهزيمة» من موقعه الزمنيّ وسياقه السياسيّ في ما يتّصل بالاحتلال والاستعمار والصهيونيّة والإمبرياليّة. والواقع أنّ إطلاق تعبير «ثقافة التشاؤم» بدل «جيل الهزيمة» يمثّل في حدّ ذاته الصيرورةَ الأخيرةَ في عمليّة إعادة استعمار العالم العربيّ. فـ «جيل الهزيمة» تعبيرٌ يستخدمه العربُ لوصف وضع سياسيّ واقتصاديّ وعسكريّ عاشوه **بصورةٍ موقّتة** (فمثلاً لا يَستخدم عشراتُ آلاف اللبنانيين، ومنهم مثقفون، هذا المصطلح، ولاسيّما بعد أن نجحت المقاومة في طرد الاحتلال الإسرائيليّ عن معظم الأراضي اللبنانيّة عام ٢٠٠٠)؛ في حين أنّ «ثقافة التشاؤم» مفهوم عربيّ (رسميّ) واستشراقيّ في الوقت نفسه، جرى تصنيعُه من قِبل ماكينة إنتاج المعارف العربيّة ـ الغربيّة كجزءٍ من المشروع الإمبرياليّ في العالم العربيّ. ويردُّ ذكرُ التشاؤم والهزيمة باعتبارهما قدَر العرب، لا حصيلةً للمظالم البنيويّة والاحتلال والاستعمار، بل يُعتبران نتيجةً لقصور وعجز ثقافيَّين داخليَّين. العرب متشائمون، بحسب هذا المنطق، لأنّ **ثقافتهم** تشاؤميّة؛ وبالتالي، يكمن الحلّ في تبنّي وجهة نظر ثقافيّة جديدة تتّسم بالتفاؤل والسعادة.

لكنّ هناك فرقًا آخر بين تعبيريْ «جيل الهزيمة» و«ثقافة التشاؤم»: إنه فرقٌ يجعلنا نتبنّى أساليبَ مختلفةً من التفكير **بالحلول**. فضمن مفهوم «جيل الهزيمة،» كانت معالجةُ المشاكل السياسيّة والاقتصاديّة تتمّ، في معظمها، بلغة التحرّر من الاستعمار والانفصال عن الغرب والإدارة الحكيمة للموارد الطبيعيّة العربيّة؛ أما ضمن مفهوم «ثقافة التشاؤم،» فتجري معالجةُ المشاكل السياسيّة والاقتصاديّة بمجموعة حلولٍ ثقافويّةٍ توهم بأنها ستساعد العربَ على تجاوز تشاؤمهم. وبين المفهومين فرقٌ يحوّل الأملَ من حالة ناجمةٍ عن العمل والمقاومة، إلى أمرٍ نسعى إلى تحقيقه عن طريق تغيير حالةٍ ذهنيّةٍ ومدرَكات بلا أدنى اهتمامٍ بالمظالم البنيويّة الناجمة عن نهب الموارد الطبيعيّة في العالم العربيّ من قِبل النخب العربيّة والشركات الأجنبيّة.

الأمل باعتباره مقاومة من أجل حبّ الحياة

«اتصل مقاتلٌ من مخيّم جنين المحاصر بصاحبه خارج المخيّم قائلاً: احكِ لي نكتةً لأضحك قبل استشهادي. قال صاحبه: كيف تضحك وأنت على حافة الموت؟ فقال: لأني أحبّ الحياة أريد أن أودّعها ضاحكًا.

إنّ شعبًا يحبّ الحياة إلى هذا الحدّ لن تخذله الحياةُ، ولا بدّ له أن ينتصر» (محمود درويش)

إنّ وصْف المقاومين بأنهم «محبّو موت،» وبأنهم يائسون ومتشائمون، ليس بالأمر الجديد بالنسبة إلى العالم العربيّ. ولا غرابة أن يُطلِقَ الإسرائيليون هذه الاتهامات على الفلسطينيين الذين «مُرّنوا» على الاستعاضة عن الأمل الذي تحمله المقاومةُ الفلسطينيّةُ، ألا وهو إنهاءُ الاستعمار، بالاستكانة والأحلام الضائعة. ولا يوجد أجدرُ بالردّ على تلك الاتهامات، وباستعادة المعاني الحقيقيّة لشعارات «حبّ الحياة» و«الأمل» و«التفاؤل،» من الشاعر الفلسطينيّ العربيّ محمود درويش. فمنذ حصار بيروت (١٩٨٢)، وصولاً إلى حصار جنين (٢٠٠٢)، مرورًا بحصار رام الله (٢٠٠٠)، قدّم درويش تحليلاً بارعًا لأهداف تلك الاتهامات: وهي دفعُ الفلسطينيين إلى الانحناء أمام المحتلّ الإسرائيليّ، وإعطائه ما يطلب، والعيشِ بتآلفٍ معه، ومراقبته وهو يستولي على المزيد من الأراضي والأرواح، مظْهرين «التسامحَ والسلامَ والحبّ،» لكون الشقاق سمةَ مَنْ لا يحبّون الحياة في «ديمقراطيّات» الزمن الحاضر. ويقول درويش إنّ الأمل تحت وطأة الحصار، وعندما يكون الصمودُ هو مفتاحَ المقاومة، يصبح مسألةً جوهريّة. فالأمل (الذي «يربّيه» المقاومون) بالمقاومة، لا «بالتآلف،» «أملٌ لا شفاء منه.» إنه «مرضٌ» مزمنٌ يصيب مَن يحملون قضيّةً ويعملون على بلوغ هدفهم، مرضٌ يبقيهم صامدين على دروب التحرير الذي لا ينتهي ولو كانوا يواجهون عدوّاً شرسًا: «هنا، عند مُنْحدرات التلال، أمام الغروب وفُوَّهَة الوقت/قُرْبَ بساتينَ مقطوعةِ الظلّ/نفعلُ ما يفعلُ السجناءُ/وما يفعل العاطلون عن العمل/:نُرَبّي الأملْ.»

ويقول درويش في قصيدته «حالة حصار» التي كتبها في ظلّ حصار رام الله عام ٢٠٠٠، فاضحًا زيفَ وهم الحياة تحت الاحتلال والاستعمار: «نحبُّ الحياةَ غدًا/عندما يَصِلُ الغدُ سوف نحبُّ الحياة كما هي، عاديّةً ماكرةً/رماديّة أو ملوّنةً.. لا قيامةَ فيها ولا آخِرَةْ/وإن كان لا بُدَّ من فَرَح/فليكنْ خفيفًا على القلب والخاصرةْ/فلا يُلْدَغُ المُؤْمنُ المتمرِّنُ/من فَرَحٍ... مَرَّتَيْنْ!»

وعندما يأتي الغد، غدُ التحرّرَ من الاحتلال والاستعمار والإذلال، الغدُ الذي سيصنعه الأملُ النابعُ من النضال من أجل التغيير، سوف يحبّ شعبُنا العربيّ الحياةَ بالمعنى العميق للحبّ. عندها فقط لا يعود «حبُّ الحياة» إيديولوجيا لـ «التآلف،» يفرضها المستعمرون للإبقاء على الوضع الراهن.

بيروت

١ ـ في الذكرى الأربعين لهزيمة ٦٧ أصدرتْ قناة الجزيرة سلسلة من الحلقات عن الموضوع ومن وجهات نظر متعدّدة. راجع:
www.aljazeeratalk.net/forum/showthread.php?t=41870 - 64k. Accessed january 23, 2009.